المرأة في حياة شاعر

بقلم انور المعداوي

عندما نتحدث عن المرأة في حياة هـذا الشاعر المصري ، تعترض انظارنا لافتــة من تلك اللافتات « المضيئة » التي تنتثر على جوانب الحياة وكأنها تقول للدارسين : من هنا الطريق .. هذه اللافتة المضيئة يحملها بيتان من الشعر قد اختتمت بهما اول قصيدة من ديوان « الشوق العائد » عنوانها « سؤال وجواب » :

فقالت ما حياتك قلت حـــلم   من الأشواق أوثر أن أطيله
حياتي قصة بدأت بكأس   لهـــا غنت ، وامرأة جميله

بيتان من الشعر يلخصان قصـة العمر ، ويقدمان هــــذا التلخيص تقديماً اميناً صادقاً لا كذب فيه .. نعم ، لقد كانت المرأة هي البداية الحقيقية لتلك القصة إذا وُزنت القصص بما فيها من فصول باسمة وصفحات مشرقة ، وان علي طه لواحـــــد ممن يؤرخون الحياة من نقطة بدء شعورية عمــــادها تلك الفصول والصفحات .

لقد خلت حياته في اول العهد بالشباب من المرأة ؛ نعـني انها خلت من الجسد الانثوي حتى بدت في رؤية العين وإحساس القلب وهي حيرة باقية ، وهي قلق دائم ، وهي فراغ متصـل اشبه بفراغ الصحراء التي لا ظل فيها ولا ماء .. ان حياة القفر واليباب يجب ان تسقط من الحساب ، ولهـذا اسقط علي طـه فترة الشباب الاولى من حساب العمر وكأنها لم تكن في عداد السنين والايام ! كانت « هزات » القلق في تلك الفـــترة هي الهزات الوحيدة التي سجلها « مرصد » الشعور وهو يشـير الى « ظاهرة » نفسية ، ويحدد مركز « الزلزلة » تحديداً دقيقـاً لا انحراف فيه .. هذه الظاهرة النفسية ونعني بها « القلق » حين يرد الى اسبابه ودواعيه ، قـد عرضنا لها في الصفحـــــة الحادية عشرة بعد المائة من كتاب « النماذج » ونحن ندرس شخصية ابي العلاء في ضوء تفسير جديد؛ هناك حيث انتهينا من الطواف حول حقيقته الفكرية والانسانية الى هذا الرأي الاخير :

« هذا القلق هو الظاهرة الكبرى في حياة أبي العـــلاء ، فاذا اراد الدراسون ان يقنعوا آثارة ليصلوا الى أسبابه فلبس امامهم غير حقيقة واحدة هي ان الذبذبة الفكرية ما هي الا انعكاس مباشر للذبذبة النفسية ؛ وهذه هي المرحلة الثانية التي تدفع بهم الى الباب الأخير ليفتح على مصراعيه ... ولنا بعـــد ذلك ان نسأل : ما هو المفتاح الاصيل الذي نعالج به هذا الباب لنضع أيدينا على سر تلك الذبذبة التي وجهت العقلية العلائية هذه الوجهة التي لا تطمئن الى رأي ولا تستقر على حال ؟ أهو العمى ؟ أهو تلك الآفة التي أصيب بها وحرمته نعمة الضياء ؟ ان العمى قد يبعث على الألم، وقد يدفع الى الشكوى ، وقد يحض على التشاؤم وبغض الحياة .. ولكن اذا مال الباحثون الى الاخذ بهذا التفسير الذي يلتمس في الآفة الجسمية سر النظرة الى الحياة فهو تفسير غـــير مقبول ، فما اكثر المكفوفين الذين امتلأت حياتهم بالنور ، وامتلأت نفوسهم بالرضى ، ونظروا الى الدنيـــا من خلال منظار ابيض يحيل الدمعة في عيونهم فرحة وابتسامة. وما اكثر المبصرين الذين نظروا الى الدنيا من خلال منظار اسود فقضوا كل ايام الحياة وهم يتخبطون في الظلام !

لبست الآفة الجسمية اذن هي مصدر هذا القلق الذي أقض مضاجع الفكر في شخصية ابي العلاء ، ولكنه فيما نعتقد شيء آخر نفسر في ضوئه المشكلة دون ان نحمل النفسية العلائية ما لا تطيق .. انك لو رحت تبحث عن سر القلق والاطمئنان في كل شخصية انسانية لما وجدته ممثلًا الا في كلمتين هما : فراغ الحياة وامتلاء الحياة ! نعم وهذا هو المفتاح ؛ المفتاح النفسي البسيط الذي لا غموض فيه ولا تعقيد .. ولو فرغت الحياة عند المبصر وغير المبصر لغـدت في رأي الشعور وهي مأساة تحفل باللوعة والالم والعذاب ، ولغدا الفكر الثابت المستقر وهو نهب لزلزلة العواصف والاعاصير . ولو امتلأت الحياة عند المبصر وغير المبصر لأصبحت في رأي الشعور أملًا كبيراً تتبجر تحت اشعته المتوهجة قطرات الهم والاسى وتفر اشباح الحرمان ! الفراغ في حياة ابي العـلاء ولا شيء غير الفراغ ؛ وعلى هديه نلتمس العلة الاصيلة لتلك الذبذبة النفسية ممثلة في هذه الذبذبة الفكرية.. ولنا بعد ذلك ان نسأل : اي لون من ألوان الفراغ كان يشكو ابو العلاء ؟ انها ثلاثة ألوان : فراغ النفس ، وفراغ القلب ، وفراغ الجسد ، ولك ان تردها جميعاً الى الحرمان ، فنفس ابي العلاء كانت تشكو الحرمـان من العطف ، وقلب ابي العلاء كان يشكو الحرمان من العاطفة ، وجسد ابي العلاء كان يشكو الحرمان من المرأة.. وقف طويلًا عند هذا الحرمان الاخير فهو مصدر الحرمان كله ، ومركز الفراغ كله ، وعلة هذا القلق الذي عصف بشعور الرجل وفكره على حد سواء !

هذا الجدب العـاطفي في القلب الانساني ، وهذا الكبت الطويل العنيف للغريزة الجنسية ، هما في رأينـا — ولا شيء غيرهما — مركبا النقص الخطيران في شخصية ابي العلاء ، ولا حاجة بنـا الى الحديث عن مركب النقص واثره في توجيه المشاعر والافكار» !

« هكذا كان علي محمود طه في حياته ، وهكذا كان في شعره : لا تفرقة بين تذوّق اللذة وبين تذوّق الجمال ، ولا فصل بينهما في عالم الشعور او في كل عالم منظور . . . لقد عشق في المرأة صورة الجسد « اللذيذ » وعشق في الجسد اللذيذ صورة المعنى « الجميل » ، ومن هنا امتزج الاحساسان في نفسه ، حتى لقد أصبحا وحدة متماسكة ليس الى تجزئتها من سبيل ! إن فيه « الرجل » الذي أقبل على المادة ، والى جانبه « الشاعر » الذي أقبل على الروح ، وهما لونان من الحب بينهما من القرب ما يلغي الفواصل ولا يعترف بالأبعاد ! »

هنا في هذه الكلمات ، ومن وراء هذا التحليل النفسي لظاهرة القلق في حياة ابي العلاء ، تبدو الحقيقة الكبرى التي تقدم اليك شخصية علي طه القلقة الحائرة ، يوم ان خلت حياته من الجسد الانثوي فخلت بذلك من كل سكينة واستقرار .. وهنا في هذه الكلمات ، تستطيع ان تفسر اتجاه الخطوط في تلك الصورة التعبيرية التي رسمناها لتلك الحياة ونحن نقول : لقد كانت هزات القلق في تلك الفترة هي الهزات الوحيدة التي سجلها مرصد الشعور وهو يشير الى ظاهرة نفسية ، ويحدد مركز الزلزلة تحديداً دقيقاً لا انحراف فيه !

لم يكن للجسد الأنثوي في فترة شبابه الأولى وجود ، او قل انه الوجود الذي يشبه العدم في حساب الظمأ المشبوب ؛ الظمأ الذي لم تكن لتطفيء اواره قطرة من الماء او قطرات .. لقد كان الشباب المصريون في الربع الاول من القرن العشرين ومنهم علي طه ، يغلب عليهم الحياء والانطواء والميل الى العزلة والولع بالخيال ، وبهذه الاسلحة التي لا تقطع ولا تدفع كانوا يواجهون الواقع في معركة الحياة . وما اكثر ما كان الواقع يصدمهم بمرارته ويلفح شعورهم بقسوته ، فيرتدون عقب كل جولة من جولات النضال ونفوسهم مثخنة بالجراح .. كان الخيال يحول بين نوازعهم الوقادة وبين متعة الانطلاق ، وكان الانطواء يحول بين عواطفهم الجياشة وبين نعمة التحرر ، وكانت العزلة تحول بين رغائبهم الوثابة وبين فرصة الظهور ، ومن هنا وجد ذلك المزاج القاتم وذلك الطبع الحزين ، نتيجة لتلك الحياة التي كانت تحيط بهم وهي خالية من افراح النفس ومباهج الروح واعياد الشعور ! واذا اردت ان تبحث عن مقومات ذلك المزاج المنقبض فارجع الى البيئة المعنوية فهي المسؤولة عن صنع ذلك المزاج .. لقد كانت بيئة الشباب في محيط الاسرة والمدرسة والمجتمع تبعث على الانطواء وتدعو الى التكبيل بكل قيد من القيود ؛ فالتقاليد الموروثة تفرض فرضاً على الشباب بما فيها من نظم عتيقة واساليب صارمة ، وكل عبث بتلك التقاليد فهو عبث بقواعد الشريعة والعرف والآداب والاذواق ، حتى اذا خطر للشباب شيء من التجديد في وسائل العيش ومظاهر الزي وطرائق التفكير ، كان ذلك في رأي القائمين على امرهم خروجاً على النظام وثورة على الاحتشام ، واندفاعاً الى هاوية الغي والفساد وانحرافاً عن معاني الفضيلة ومناهج الاخلاق !

من هنا انعدم الاتصال الكامل بين الرجل والمرأة ، حين وقفت التقاليد الموروثة وبقايا الحجاب الصفيق سداً هائلا وجداراً منيعاً بين الشباب من الجنسين .. وحرمان البيئة من المرأة وهي بهجة الحياة الكبرى ونبعها الدافق باللذة والجمال والحب ، كان له ابعد الاثر في خلق الرومانسية الوجودية والفنية في حياة علي طه الاولى وإنتاجه الاول ، وكانت مصدراً عميقاً من مصادر القلق الدفين والأسى الملح والشكاة التي تعلن عن نفسها في كثير من شعر ديوانه « الملاح التائه » ! كل ما كان يستطيعه الشباب في ذلك الحين هو ذلك الحب الذي يختلس الموعد « البريء » في غفلة من اعين الرقباء ، ثم لا يتطلع من وراء ذلك الى ما يتطلع اليه حب الشباب « المتحررين » في هذه الايام .. لهذا كله تذوق شباب الامس طعم السهد ، وعرفوا حرقة الوجد ، وألفت حياتهم حديث الدموع ، وبخاصة اولئك الذين بعدوا بحكم النشأة كشاعرنا عن حياة المدن الكبرى وعاشوا في ربوع الريف ؛ هناك حيث كان التحرر من اسر التقاليد ميسوراً في « بعض » الاحيان ، وهنا حيث وقف الشباب من تلك التقاليد موقف السجين من صلابة القضبان !

في ذلك الجو الريفي نشأ علي طه خاضعاً لعاداته مكبلا بقيوده فلم يعرف المرأة عن طريق آخر غير هذا الطريق الذي وصفناه .. كان حبه هو ذلك الحب « الروحي » الذي يقتصر في الاعم الاغلب على امرأة واحدة ، ثم لا يكاد يتعداها الى غيرها من النساء ! وكان هذا من اثر البيئة « المتحفظة » التي تضيق امام تحفظها سبل التعدد والاكثار .. هكذا كان حبه ، ومثل هذا اللون من الحب تطالعك منه اللهفة كما يطالعك العذاب ، ومصدر الشعورين شعور ثالث هو الاشفاق .. ان المحب الذي لا يعرف غير امرأة واحدة اشبه بالرجل الذي لا يملك غير حجرة واحدة ، هي بالنسبة اليه كل الملجأ او كل الملاذ ؛ فاذا فقدها فقد معها الامل في العثور على مأوى جديد ، يقيه ذل الشعور بانه منبوذ طريد ! من هنا تنبت اللهفة على الشيء المملوك وليس في الحوزة سواه ، حين يخطر في الظن انه عرضة للضياع وان الحرص عليه لا ينجيه من قدر مكتوب .. ومن هنا ايضاً ينبع العذاب ومبعث الشعورين كما قلنا هو الاشفاق ! وما هكذا تجد الحب « الجسدي » الذي يتخطى مرحلة « التوحيد » الى تلك المرحلة الاخرى التي يلوذ فيها باكثر من شريك .. هذا الحب الجسدي « المشرك » قلما تعثر فيه على المحب الذي يلوعه الهجر حين يجيء في اعقابه الحرمان ، لان المائدة عنده لا تقتصر على الصنف

الواحد حتى يشفق من الجوع ، او لان البيت عنده لا يحوي الحجرة الواحدة حتى يشفق من التشرد والهوان !

لقد كان علي طه في حبه الروحي الاول مثال الرجل الذي لم يلق على المائدة غير صنف واحد من الطعام ، او الرجل الذي لم يكن له من مأوى في الحياة غير حجرة واحدة . وكان في حبه الجسدي الاخير مثال الرجل الذي جلس الى المائدة الحافلة او الرجل الذي تنقل في البيت الكبير بين شتى الحجرات .. عذاب ولهفة وإشفاق تطوى على صورها صفحة وتفتح صفحة ، وفي الصفحة المفتوحة صور اخرى فيها الهدوء للحس الفائر والسكينة للفكر القلق والحرية للشعور المكبوت ! صفحتان او قل انهما مرحلتان مرت الاولى وكأن لم يكن للمرأة فيها وجود لانها كانت اشبه بطيف من الاطياف التي تعز على التجربة الحسية وإن بصرت بها العيون . وانقضت الثانية والمرأة فيها هي الساحة الكبرى التي تنطلق من ارجائها تجارب الحس والنفس وتنبعث من اعماقها فورة الشعور بالدنيا على اوسع نطاق ! وتعال بعد ذلك نستعرض في تلك المرحلة الاولى بعض المشاهد من ذلك الحب الروحي اليائس ، يوم ان كانت المرأة طيفاً يلمح ولا يلمس او املا يرتجى ولا ينال ، وها هو شاعرنا في الصفحة السبعين بعد المائة من « الملاح التائه » ينتظر طيفه الذي لم يكن يجرؤ على الظهور في وضح النهار :

طال انتظارك في الظلام ولم تزل   عيناي ترقب كل طيف عابر
ويطير سمعي صوب كل مرنة   في الافق تخفق عن جناحي طائر
وترف روحي فوق انفاس الربى   فلعلها نفس الحبيب الزائر
ويخف قلبي إثر كل شعاعة   في الليل تومض عن شهاب غائر
فلعل من لمحات ثغرك بارقاً   ولعله وضح الجبين الناضر
ليل من الاوهام طال سهاده   بين الجوى المضني وهجس الخاطر
حتى اذا هتفت بمقدمك المنى   وأصخت استرعي انتباهة حائر
ومضت تكذبني الظنون فأنثني   متسمعاً دقات قلبي الثائر
اقبلت بالبسمات تملأ خاطري   سحراً واملأ من جمالك ناظري

☆

بدلت من عطف عليك ورقة   بحنين مهجور وقسوة هاجر
وكأنني ما كنت إلفك في الصبا   يوماً ولا كنت الحياة مشاطري

هنا اللهفة التي تترقب الحبيب القادم وهي في قبضة الشكوك والاوهام ، وهنا اللوعة التي تنظر الى اللقاء العابر وكأنه حلم من الاحلام ، وهنا الحيرة التي تعقب الوداع وتشفق من المستقبل وهو رهين الغد المجهول .. هنا هذه الهزات العنيفة التي تتعرض لها النفس وهي تحرص على الشيء الوحيد الذي تملكه وتخشى ان يضيع ، حتى اذا ضاع اشعرتها مرارة الفقد بانها لم تملك من قبل شيئاً وبان الحياة منذ بدئها متصلة الفراغ ! شعور طبيعي عند اصحاب الهوى الروحي الذي يقتصر على امرأة واحدة ؛ عند هؤلاء الذين يملكون النزر اليسير يبدو مع العوز انه كثير ، حتى اذا سلبوه صحوا من وهم الخيال على حقيقة الواقع ، وادركوا انهم كانوا على مدار الزمن فقراء ... حقيقة نفسية تكمن وراء هذه الابيات التي نقتطفها من الصفحة السادسة والخمسين من « الملاح التائه » ؛ هناك حيث يخاطب الشاعر قلبه الجريح :

وصحوت من وهم ومن خبل   فاذا جراحك كلهن دم
لجت عليك مرارة الفشل   ومشى يحز وتينك الألم !
والارض ضاق فضاؤها الرحب   وخلت فلا اهل ولا سكن
حال الهوى وتفرق الصحب   وبقيت وحدك انت والزمن!
وصرخت حين اجنك الليل   متمرداً تجتاحك النار
وبدا صراعك انت والعقل   ولأننا بحر وإعصار !

هذه هي الصحوة ؛ صحوة القلب من نضال طويل الامد في سبيل حب يائس لا امل فيه . قل انها صحوة المهزوم حين نتمثل علي طه في صورة المحارب الذي دخل المعركة ليقتحم حصناً من الحصون ؛ حصناً كم تذرع ليصل اليه بالصبر وكم تعلق بالوهم وكم تشبث بالرجاء ، حتى اذا تكسرت اسلحته بين يديه صحا على وخز الجراح وادرك ان الامنية تعز على الدارعين ! قل انها صحوة المهزوم على هذا الاساس وقل على اساس آخر انها صحوة المخمور ، حين يتخلص من أثر الكأس التي لعبت برأسه وخدرت إحساسه وخدعت رؤية العين حيال الواقع المشهود ... ماكان اشبه علي طه بذلك الذي شرب فثمل فتعددت امام ناظريه صور المشاهد والمرئيات : يكون الشيء واحداً فيظنه شيئين ، ويكون الشخص واحداً فيخاله شخصين ، وتكون الحانة خاوية فاذا هي في لقطة البصر الواهم مزدحمة بالسمار ! كانت حاله هي حال من تجرع كؤوس الخمر مترعة حتى ذهل عن حقيقة نفسه وحقيقة وجوده ، فلما أفاق ، وجد الحياة من حوله وهي في صورتها الصادقة التي لا وهم فيها ولا خداع .. وجدها الصحراء القاحلة التي لا تتعدد فيها المشاهد ، وجدها الحانة الخاوية التي ليس بها من سمير ، وجدها السكون الممل الذي تضل فيه امانيه بين متاهات الفراغ !

مرحلة نفسية تقبل بعدها مرحلة اخرى فيها السخط الذي يخلف الرضا وفيها التمرد الذي يعقب الخضوع ، لأن العقل قد استيقظ من سبات طويل تعرض فيه لخوادع الأحلام . أرأيت الى المريض الذي طال مرضه حين يفزع الى العقار يلتمس فيه

« البقية على الصفحة ٤٣ »

المرأة في حياة شاعر

(بقية المقال المنشور على الصفحة ١٧)

البرء والشفاء ؟ قد تكون الجرعة في فمه مرة المذاق وقد تكون على شعوره شديدة الوطأة ، ومع ذلك فهو يتقبل المرارة راضياً لأن فيها حلاوة الامل المتمثل في استعادة العافية .. يتقبلها راضياً حتى اذا تعذر الشفاء فقد وجب السخط على الجرعة الخادعة ، ثم لا يكون بينه وبينها غير التمرد وفي اعماقه الصدّ والاعراض .

كان علي طه هو ذلك المريض الذي برح به الداء وخدعه الدواء ، فلم يكن هناك بدّ من الامتناع عن تناوله والبحث عن عَقّار جديد ؛ عقار يستطيع ان يقبل عليه وهو آمن من مرارته وواثق من قضائه على الآلام والاوجاع .. من هنا تمرد علي ذلك الحب الروحي وأوّصد ابوابه في وجهه حتى ليدفع عن تلك الابواب كل طارق من الاشباح :

لم اقبلت في الظلام إلي ؟ ولماذا طرقت بابي ليلا ؟
لات حين المزار ايتها الاشباح فامضي فما عرفتك قبلا !
اتركيني في وحشتي ودعيني في مكاني بوحدتي مستقلا
لست من تقصدين في ذلك الوادي فعذراً إن لم أقل لك أهلا
ذاك مأواي في تخوم الفيافي طلل واجم عليك اطلا
قد تخليت عن زماني فيه وهو بي عن زمانه قد تخلى!
ابرحي بهوه الكئيب فما فيـــه لعينيك بهجة تتجلى
قد نزلت العشي فيه على قفر جفته الحياة ماء وظلا !
كان هذا المكان روضاً نضيراً جر فيه الربيع بالامس ذيلا
كان فيه زهر فعاد هشيماً كان فيه طير ولكن تولى!
فاسلمي من شقائه ودعيه وحده يصحب السكون المملا
واطرقي غير بابه ان روحي أحكمت دونه رتاجاً وقفلا!

ابياتٌ مقتطفة من قصيدة عنوانها « ايتها الاشبـــاح » في الصفحة الثامنة والاربعين من « الملاح التائه » . انها اشباح حب قديم ، إنها اطياف حلم عابر ، انها وفود الذكريات اقبلت تطرق بابه والناس نيام ! لماذا اقبلت وقد اقفر الروض فلن يصدح على افنانه طير ؟ لماذا اقبلت وقد صوّح الزهر فلن يعبق من اوراقه ارج ؟ لماذا اقبلت وقد جف النبع فلن ينبثق من اعماقه مـاء ؟ لماذا اقبلت وقد نامت بين احضان الخريف لياليه ولن تصدق في نومها للربيع احلام ؟ ألا فلتتركه في وحشته ولتدعه في وحدته فقد نسيها حتى لتنكرها العين وتجهلها الذاكرة ، ويفزع الفكر من مرآها وتهجس الظنون .

ترى هل لقي علي طه في ذلك الحب اليائس كل هـذا الغنى الذي تخيله وهو « يعدد » ألوانه ومعانيه ، ترى هل لقي فيـه الروض قبل ان يقفر والزهر قبل ان يذبل والنبع قبل ان يغيض ؟ كلا ، وإنما هو إحساس الذي اكثر من شرب الخمر كما قلنا « فتعددت » امام ناظريه صور المشاهد والمرئيات ، فلما تخلص من أثر الكأس بدت الحياة من حوله وليس فيها من تخيل الغنى شيء وإنما فيها من واقع الحرمان اشياء . ألا تراه هنا وهو يصرخ في وجه الذكريات قائلا لها انني لا اعرفك ، وكأنها من اجل هذا لا تستحق ان يفتح لها الباب او يفسح الطريق . انه هتاف الساخط المتمرد او هتاف الثائر الملتاع ، حين يشعر بعد فقد القليل الذي كان يوماً ملك الروح واليدين ، انه لم يملك من قبل شيئاً وان الحياة منذ بدئها متصلة الفراغ .. هذه هي الحقيقة النفسية التي تدور حولهـــا الحقائق الاخرى وكأنها تدور حول محورها الأصيل ؛ ولقد وقفنا عندها قبل ذلك وقفة من يرفع المصباح بين يديه ليصل الضوء الى القادمين من بعيد !

هكذا كان وجود المرأة في حياة علي طه الاولى او فيما قبل الثلاثين ، وهو الوجود الذي يشبه العدم كما قلنا وتنطفىء فيـه شعلة الامل ، ويموت الشعور بالزمن ويخفت كل حداء رددته قوافل الايام .. واستمع لعلي طه وهو يلخص حقيقته المادية في ختام قصيدة عنوانها « الأمسية الحزينة » في الصفحة الثالثـة والثلاثين بعد المائة من « الملاح التائه » ؛ هناك حيث يخاطب المرأة التي احبها بالروح فقُتل في هواها الشباب :

يا من قتلت شبابي في يفاعته ورحت تسخر من دمعي واناتي
حرمت ايامي الاولى مفارحها فما نعمت باوطاري ولذاتي !

هذان البيتان هما ختام المشهد الاخير في قصة حب يائس ، ويا لها من قصة زخرفت مشاهدها بالوان من الصراع خرج منها الشباب وهو صريع .. ألا تسمع علي طه وهو يشير الى « ايامه الاولى » التي حرم فيها الاوطار واللذات ولم يلق منها غـير الدموع والانات ؟ ان في هذه الاشارة نقطة التحول من مرحلة الى مرحلة او من نهاية الى بداية ؛ من مرحلة الحزن والانطواء الى مرحلة البهجة والانطلاق ، ومن نهـــاية الموت الذي يلغي الشعور بالزمن الى بـــداية البعث الذي يسجل قصة العمر من جديد .. مضت حيـاة واقبلت حياة ، وفي اليوم الاول من هذه الحياة الجديدة حدّد علي طه ساعة الميلاد ، وكأن ايامه الماضية كانت جنيناً مات قبل مولده فخرج الى الدنيا ولكنه لم ير النور ! ألم تكن معه وهو يلخص حياته الحقيقية في بيتين من

الشعر ويقول عنها انها حلم من الاشواق يؤثر ان يطيله ، وان بدايتها كانت كأساً من الخمر غنى لها الفن والشعور وهو في صحبة امرأة جميلة ؟ ! حقاً لقد بدأت الحياة عنده في كيان أنثى واندلعت شرارتها الاولى من جسد امرأة ، وها نحن معه في هذه القصة الجديدة نتابعه فيما حوت من فصول ومشاهد تقدمها سطورٌ اخرى غير سطور الامس . . سطور تقول لنا ان علي طه قد تخلص من قيود ماضيه وبدأ يستروح أنسام الحرية في ظلال حاضره ، واستطاع ان يشق طريقه الى الجسد الانثوي وان يخطو في هذا الطريق بضع خطوات !

ولا تعجب اذا رأيت في خطواته الاولى حرارة الاندفاع وفي اعقابها مرارة الندم ، لان عنف النقلة بين الامس واليوم قد رجّ بوتقة الشعور حتى ليصعب ألا يمتزج فيها انفعال بانفعال .. ان علي طه هنا يشبه طالب المال الذي ضاقت في وجهه السبل فاتجه لاول مرة نحو مائدة الميسر ، حتى اذا اقبل عليه الحظ وتذوق نشوة الكسب مضى يراجع نفسه ، ثم خرج من هذه المراجعة وشعوره الاول مزيج من انفعالين : احدهما ينطق باللذة التي يثيرها الغنى بعد طول الفقر والاملاق وما يتبعها من طول الترقب والانتظار ، والآخر يجهر بالالم الذي تحسه النفس حين تدرك ان الطريق الذي سلكته الى الغنى لم يكن اشرف طريق .. هناك الرضا بان اليد قد امتلأت بعد ان قضت اكثر ايامها وهي قابضة على الهواء ، وهنا الندم الذي ينظر الى اليد الممتلئة وكأنها قد دُنّست بعد طول ألفتها للطهر والصفاء :

تلفت ! فهذا خيال التي   مرحت وغردت في وكرها
وغرفتها لم تزل مثلما   تنسمت حبك من عطرها
وقفت بها ساهماً مطرقاً   يحدثك الليل عن سرها
مكانك فيها كما كان امس   وذلك مثواك في خدرها
وآثار دمعك فوق الوساد   وفوق المهدل من ستْرها
فهل ذقت حقاً صفاء الحياة   وذوب السعادة في ثغرها ؟
اذا فتح الباب تحت الظلام   فكيف ارتماؤك في صدرها ؟
وكيف طوى خصرها ساعداك   ومرت يداك على شعرها ؟
لقد دنس الجسد الآدمي   حياة حرصت على طهرها
بكى الفن فيك على شاعر   تسائله الروح عن ثأرها !
نزلت بها وهدة كم خبا   شعاع وغيب في قبرها
رفعت تماثيلك الرائعات   وحطمتهن على صخرها !

ابيات مقتطفة من قصيدة عنوانها « هي » في الصفحة الرابعة والاربعين من « ليالي الملاح التائه » .. انها الرجفة التي هزت كيانه بعد ان التقى في حياته بالجسد الانثوي فاضطرب منه الشعور بين حاضره وماضيه ، بين الحب الروحي الموحد وبين الحب الجسدي المشرك ، بين فنه الذي عاش بالامس في كنف الطهر وبين فنه الذي تردى اليوم في هوة المعصية ، بين الشاعر الذي حلق في جو الشباب الاول بجناح ملَك وبين الشاعر الذي حلق في جو الشباب الاخير بجناح شيطان ! لحظة من لحظات النفس الانسانية وهي تحاسب صاحبها وتراجعه وتقيم ميزانها لتقدير الامور : كفة فيها الحياة طاهرة ولكن فيها الالم الممض والقلق المبرح وسياط العذاب ، وكفة فيها الحياة مشوبة ولكن فيها اللذة العارمة والنشوة الجارفة وامتلاء الفراغ ؛ ويحار المحاسب وهو بين الكفتين ولكنها الحيرة التي تعتري الشعور ولا تطول ، لان مائدة الميسر هنا تحفل بالاغراء وتزخر بالغواية حتى لتذهل النفس بعد حين عن كل مراجعة وكل حساب .. انها شهوة المقامرة حين تلوّح لصاحبها باحلام الثراء بعد ان دفعت به الى اول تجربة فخرج منها وهو ممتلىء اليدين ، حتى اذا تكررت التجربة وتجدد الكسب خفت في الاعماق صوت الندم على انه قد حاد يوماً عن الطريق !

هذا هو المنظار « المقرّب » الذي يختصر مسافة البعد بينك وبين الشاعر وكأنك تراه من المدى القريب .. إنه في موقف النادم على حياة « حرص » على طهرها ثم دنسها الجسد الآدمي ، حتى لقد بكى الفن فيه على شاعر تسأله « الروح » ان يثأر لما لحق بها من هوان ! ترى هل حرص على ان تظل تلك الحياة طاهرة كما يقول ؟ كلا ! وانما هي صيحة الضمير المحرج امام ثورة الندم وهي عاصفة ، حين يفزع الى الخيال يلتمس عنده العون لانقاذ واقع جريح .. وقل بعد ذلك انه شعور التجربة الاولى ، فلما حان موعد التجربة الثانية ، لم تعد « الروح » تسأل عن ثأرها وانما الذي عاد يسأل عن ثأره هو « الجسد » ، بعد ان غمرته بفيض اللذة تلك المائدة المشتهاة ! واستمع لعلي طه وهو يردد هذا المعنى ترديداً قوياً في « بحيرة كومو » حيث يقول لصاحبته الامريكية :

ما تسرين ؟ افصحي !   ان في عينك الخبر ..
الغريبان ها هنا   ليس يجديها الحذر !
نحن روحان عاصفان   وجسمان من سقر
فاعذري الروح ان طغى   واعذري الجسم ان ثأر !
نضبت خمر بابل   وهوى الكأس وانكسر
وهنا كرمة الخلود   فطوبى لمن عصر !
فيم والنبع دافق   يشتكي الظامىء الصدر ؟

أين هذا المتهالك على الجسد الانثوي هنا من ذلك المتردد

المشفق المحاذر هناك ؛ في تلك التجربة الحسية السابقة التي نسي بعدها كل تردد وكل حذر وكل اشفاق ، انها النتيجة الطبيعية بالنسبة الى رجل ضاق بحرمانه وسخط عليه ، انه التحول المنتظر في خطوات شاعر لقي من الحب الموحد ما جعله يكفر به ، انه الاتجاه الذي لا غرابة فيه حين ينتهي السخط الى تمرد وينتهي التمرد الى تحديد خط سير آخر في طريق الحياة.. ولقد حدد علي طه خط سيره عندما خرج من نطاق البيئة التي نشأ فيها وراح يتنقل بين شتى البلاد الاوربية ، طلباً لمتعة النفس والحس والفكر والخيال . ولقد عرف في هذه البيئات الجديدة كيف ينعم بهواء الحرية وكيف يتنفس بملء رئتيه ، لأن البيئة المصرية في بداية الربع الثاني من القرن العشرين لم تكن قد تخلصت من ظلال كل موروث من التقاليد . كانت هناك مرحلة انتقال من غير شك ، ولكنها المرحلة الاولى التي تتحول فيها الاوضاع الاجتماعية ذلك التحول البطيء الذي لا يبلغ حد التهور على كل حال .. تيارات فكرية متحررة بدأ الشرق يتلقاها عن الغرب ، ويتأثر بها الشباب تأثر من يلتمس في الجديد خلاصاً من نظام رتيب ؛ ومن هنا خطت البيئة المصرية اولى خطواتها نحو التحرر الاجتماعي ، ومن صوره الوافدة تلك العلاقة بين الجنسين ؛ كانت خطوة زاحفة الى الامام ولكنها لم تكن مندفعة ، لأن خيوطاً من الماضي القريب كانت تشدها الى الوراء وتكبح جماحها من حين إلى حين ، كلما حاولت في فورة الانطلاق ان تحطم في طريقها كل الحواجز والعقبات .. ولقد وجد علي طه في تلك المرحلة الانتقالية بعض العزاء ، ولكنه العزاء الذي لا يغني الرغبة الحبيسة عن التطلع الى اتجاه معلوم ، انه الظمآن الذي لا يملأ نفسه منظر الماء وهو « منساب » من الغدير وإنما تمتلىء به النفس وهو « متدفق » من النهر الكبير ، ولهذا آثر شاعرنا ان يعب من نهر اللذات في كل بيئة لا تضن بفيضها على أمثاله من الظامئين :

قلت لي والحياء يصبغ خديك : انار تمشي بها ام دماء ؟
ملء عينيك يا فتى الشرق أحلام سكارى وصبوة واشتهاء
وعلى ثغرك المشوق ابتسام ضرجته الاشواق والاهواء
أوحقاً دنياك زهر وخمر وغوان فواتن وغناء ؟
قلت يا فتنة الصبا حفلت دنياك بالحب والمنى والاغاني
ما اثارت حرارة الجسد المشتاق الا مرارة الحرمان !
ان اجسادنا معابر ارواح الى كل رائع فتان
انا اهوى روحية العالم المنظور ولكن بالجسم والوجدان
ما تكون الحياة لو انكر الاحياء فيها طبائع الاشياء ؟
أنا اهواك كالفراشة صاغتها زهور الثرى وكف الضياء
انا اهواك فتنة صاغها المثال من طينة ومن إغراء
انا اهواك بدعة الخلد صيغت من هوى آدم ومن حواء !

ابيات مقتطفة من قصيدة عنوانها « فلسفة وخيال » في الصفحة الحادية والعشرين من « شرق وغرب » . واما الحديث هنا فيدور بين الشاعر وبين صاحبته الاسكندينافية.. ما اصدق هذا الشعر الذي يقدم صاحبه كما تقدم المرآة الصافية وجهاً من الوجوه لا أثر في قسماته لفعل الطلاء ؛ ما أصدقه في الدلالة على هذه الحالة النفسية التي ينتفض فيها الكيان البشري وهو ينتقل من السكون الى الحركة ومن الصمت الى الضجيج ومن خلف الجدران إلى الفضاء العريض ؛ ما أشبهه بوثيقة المعترف الذي يقول كل ما في نفسه ليريح ويستريح ، حين تواجهه بالدليل المادي الذي ينم عليه فلا يجد بداً من البوح والافضاء .. واي دليل مادي هذا الذي نعنيه ؟ انه الشوق الملحّ إلى انتهاب اللذة حين تطل النار من تحت الرماد ، وتشع في بسمة من الشفة او في نظرة من العين ، وكلتاهما كلمة « صامتة » إذا اغريتها بالنطق تطوع للترجمة عن مدلولها اللسان. ولقد قال علي طه تلك الكلمة لصاحبته بعينيه وشفتيه ثم بلسانه ، قالها صريحة لا مواربة فيها جريئة واضحة لا يطالعك منها تحرج ولا غموض ... عينان من « الشرق » تضج بين أهدابها الشهوة وتتنزى الصبوة ويندلع اللهيب ، وشفتان تقطر منهما الرغبة وينبعث الشوق وتتحفز اللهفة للوثوب ، وحين يسأل « الغرب » عما وراء النار من اسرار لا يسمع غير صوت واحد هو صوت الحرمان .

هذه هي الكلمة التي تقف من السؤال موقف الجواب ، وتفسر كل حركة من حركات النفس وكل فورة من فورات الجسد ، وتبرر في هذه المرحلة الانتقالية تحول الشاعر من حال إلى حال .. انها الكلمة التي تفسر كل حركة هناك بالنسبة الى شاعر كم حن إلى تذوق الجمال ، وكل فورة هنا بالنسبة الى رجل كم سعى إلى تذوق المرأة ، ولن تستطيع في شخصية علي طه ان تفرق بين « الرجل » و « الفنان » ؛ إنه لم يكن واحداً من الذين ينشدون الجسد الانثوي بغية اللذة الخالصة لطغيان الغريزة ، حين تتحكم الغرائز وحدها في تجارب الحس وتتجه بها إلى دائرة معينة أو مجال مقصود .. لم يكن في ضوء معرفتنا الشخصية به واحداً من هؤلاء ، وإنما كان على التحقيق واحداً ممن ينشدون ذلك الجسد لأن فيه اللذة وهي « مقترنة » بالجمال ، وكأن المرأة هي المعبر الرئيسي لكل شعور يريد ان ينفذ إلى

ما وراء الصور الحسية من قيم جمالية .

هكذا كان في حياته وهكذا كان في شعره ؛ لا تفرقة بين تذوق اللذة وبين تذوق الجمال ولا فصل بينهما في عالم الشعور او في كل عالم منظور.. لقد عشق في المرأة صورة الجسد «اللذيذ» وعشق في الجسد اللذيذ صورة المعنى «الجميل» ، ومن هنا امتزج الاحساسان في نفسه حتى لقد أصبحا « وحدة » متماسكة ليس إلى تجزئتها من سبيل . إن فيه « الرجل » الذي اقبل على المادة وإلى جانبه « الشاعر » الذي أقبل على الروح ، وهما لونان من الحب بينهما من القرب ما يلغي الفواصل ولا يعترف بالابعاد .

هناك رجل لا يستهويه من الزهرة غير اللذة « المجردة » التي ينقلها اليه طيب الرائحة ، وهذا هو المزاج العادي الذي يقصر التذوق على اللذة المادية . وهناك رجل آخر لا يقصر التذوق على مثل تلك اللذة ما دام إلى جانبها جمال تعشقه الروح ، لأن الزهرة عنده « لون » و « عطر » ؛ لون يبهر وعطر يفوح ... وهذا هو المزاج غير العادي لأنه مزاج الفنان ؛ مثل ذلك الرجل الاول صاحب مزاج لا يمكنك ان تصفه بأنه مزاج رفيع، لأنه يستقبل المشهد المادي ممثلا في الزهرة بحاسة واحدة ، وكأن الحواس الاخرى قد فقدت وظائفها الرئيسية . هذه الحاسة الواحدة التي نعنيها هي حاسة الشم التي تبحث عن العطر ولا تبحث عن شيء سواه ، وسواء لديها وجدته في الزهرة أم وجدته في « زجاجة الكولونيا » ما دامت كل منها تنفح الشعور بنشوة الرائحة ؛ لو اشتركت عنده حاسة النظر مع حاسة الشم لغدت الزهرة في إحساس العين والأنف وهما كما قلنا لون وعطر ، ولتحول هذا الاحساس الخارجي بعد ذلك إلى إحساس داخلي هو في لغة النفس لذة وجمال ... وهنا تجد المزاج الفني المرهف عند الرجل الأخير .

مزاجان في تذوق الزهرة يقابلها مزاجان في تذوق المرأة ؛ مزاج « فني » عند علي طه ومزاج « عادي » عند شاعر مثل بيرون .. لقد كانت المرأة عند الشاعر الانجليزي جسداً وجسداً فحسب ، وكانت لذة ولذة فحسب ، وكانت « حاسة الجنس » هي أداة التذوق الوحيدة هنا كما كانت « حاسة الشم » هي أداة التذوق الوحيدة هناك ! انه الرجل الذي لا يشتهي الجسد الانثوي الا لغرض واحد ، هو ان يخمد صوت الغريزة كلما تردد بين جنبيه صداه .. اللذة المادية ولا شيء غير اللذة المادية ، حين يسعى غيره من اصحاب الهوى الجسدي الى معنيين أحدهما قريب والآخر بعيد ! كل أنثى في منظار بيرون جسد لذيذ ولا شيء وراء الجسد اللذيذ غير إرضاء الشهوة . . أرأيت الى الرجل الأكول الذي تنحصر قيمة الطعام عنده في معنى واحد هو انه وسيلة مجدية ضد الشعور بالجوع ؟ ان كل الاطعمة في رأيه « لذيذة » ولو كان بعضها في رأي العرف لا يهضم ، «شهية» ولو كان بعضها في رأي الغير لا يستساغ ، لانه لا ينشد كغيره جودة الطهي وطيب المذاق ، وانما ينشد لذة الشبع وامتلاء المعدة ! في هذا المثال المادي تجد الشاعر الانجليزي في اصدق ما تقدمه الطبيعة البشرية من ملامح وسمات .. انه الرجل « النهم » الذي استطاعت « معدته الجنسية » ان تهضم جسد اخته دون ان تفرق بينه وبين غيره من الاجساد ، لان امتلاء المعدة كما قلنا هي كل الغايات عند امثاله من الجائعين ! !

لقد كان بيرون يشتهي الصورة الانثوية في كل إطار : في إطار الاخت ولا خجل ، وفي إطار الصديقة ولا حرج ، وفي إطار زوجة الغير ولا ترفّع ، وفي إطار كل عابرة سبيل ولا تهيّب ؛ وليست الغاية هي الاحساس بالجمال لانه لم يكن يتذوق في الصورة الانثوية شيئاً من القيم الجمالية .. هكذا كان ولا حيلة له في ذلك الشر الوراثي الذي اختلط بدمه وخلّف له هذا المزاج الاباحي المستهتر الذي لا يقيم وزناً للعرف ولا للتقاليد ! ولم يكن علي طه بأقل منه نهما الى الجسد الانثوي ولا هياماً به ولا تهالكاً عليه ، ولكنه لم يكن إباحياً ولا مستهتراً ولا شريراً تبعاً لاختلاف البيئة والنشأة وأثر الوراثة في تكوين الشخصية الانسانية ! كان كما عرفناه يعفّ عن المرأة حين يدرك بفطنته او بانسانيته انها ليست بائعة جسد في سوق الرذيلة . . كان يفرق بين الصديقة وبين العشيقة ، بين امرأة خلقت للحب الروحي وبين امرأة خلقت للحب الجسدي ، بين ثمرة مهيأة للقطاف وبين ثمرة مهيأة للصون والعفاف !

لقد عرف علي طه الكثيرات وتنقل بين هوى الغانيات ، ولكنه كان أبداً يعلو فوق مستوى الموقف الذي يلغي عند غيره الشعور بالانسانية ، كان ميزانه للمرأة هو الميزان الذي لا ينحرف في تقدير إقبالها على الرجل وفي فهم غايته ومرماه : امرأة تقبل بكيانها اللافح فهو إقبال الجسد، وامرأة تقبل بوجهها البريء فهو إقبال الروح ، وامرأة تقبل بحديثها المصفّى فهو إقبال الصداقة ، وامرأة تقبل بنظرتها الكسيرة فهو إقبال من ترتجي العون وتنشد الرعاية .. وكل هذه النماذج الانثوية

قد مرت بـــه وأكثرت من المرور فاختلف إزاءها الحس والشعور .

نعم ، هو هذا الذي يفرق في الحب بكلا نوعيه بين النساء ويفرق بينهن في كل مجال يتصل بالعطف أو يتعلق بالعاطفة ، لأنه الرجل الذي لمس بعد طول الطواف بعالم المرأة أن لكلّ غاية ولها وسيلة . واستمع له وهو يحدثك حديث نفسه في أولّ قصيدة من ديوان « الشوق العائد » وعنوانها كما عرفت من بداية هذا الفصل « سؤال وجواب » :

تسائلني : وهل احببت مثلي ؟ ... وكم معشوقة لك او خليله ؟
فقلت لها وقد همت بكأسي ... الى شفتي راحتها النحيله
نسيت، وما أرى احببت يوماً ... كحبك، لا، ولم اعرف مثيله
فقالت لي جوابك لم يدع لي ... الى إظهار ما تخفيه حيله
وفي عينيك اسرار حيارى ... تكذب ما تحاول ان تقوله !
فقلت اجل، عرفت هوى الغواني ... لكل غاية ولها وسيله !
وعدت كما ترين صريع كأس ... انا الظمآن لم يطفيء غليله
فقالت كيف تضعف قلت ويحي ... وكيف اطاع شمشون دليله ؟
فقالت ما حياتك قلت حلم ... من الاشواق اوثر ان اطيله
حياتي قصة بدأت بكأس ... لها غنيت ، وامرأة جميله

قصيدة اخرى من قصائده الاعترافية .. لقد عرف المرأة من كل جنس ولون ، ومع ذلك فهو ظمآن إلى الجسد فاذا سئل عن السر هناك اجاب بانه مرارة الحرمان ، وإذا سئل عن السر هنا أجاب بانه الضعف امام فتنة الغواية وأسر الجمال وسحر الاغراء ؛ وكل انثى تلقاه بهذه الاسلحة مجتمعة فهي دليلة التي تتحكم في مصير شمشون ، وهو صادق في الجواب الاول كما هو صادق في الجواب الأخير ، لأنه كان عاشق لذة باسم الرجولة وعاشق جمال باسم الفن ، ولقد تعرضنا للصلة بين المعنيين في نفسه فيما سبق من حديث .. واعجب بعد ذلك لمثل هذا الرجل الذي كم عبّ من نهر اللذات وكأنه لا يعرف الري ، حين يعفّ وهو في غمرة الظمأ المتصل وفورة الحسّ المشبوب ، عن كل امرأة يدرك أنها « تحفة » ثمينة يجب أن تحفظ في « معرض » الشعور وتصان ، وليست بتلك « السلعة » الرخيصة التي تباع في الاسواق ولا ضير عليها من الهوان .

ألا ما أكثر الوجوه الانثوية التي كان يلقاها أو يسعى إلى لقائها وبين جنبيه رغبة تحتدم ؛ رغبة تريد أن تمتص من ثدي الحياة كل قطرة من عصير اللذة وكل دفقة من رحيق الجمال ، وحول المرأة وهي النبع الرئيسي كم حامت الرغبة المحتـــدمة كفراشة تشغل عن مسّ النار باشراق النور ! والكأس ... والكأس كانت دائماً تحتل مكانها من المائـدة كلما ارتفع صوت الجوع من الاعماق النهمة ليشبع الجسد ، وكأنما كانت الكأس هي « فاتحة الشهية » كلما صُفّت على المائدة ألوان الطعام ، إنك لا تكاد تجد حديثاً عن المرأة في شعر علي طه الاخير دون ان تجد بين طياته ذلك الهيام بنشوة الكأس ، وكذلك كان واقعه النفسي وهو يمزج بين النشوتين في واقع الحياة .. هيـام بالمرأة وهيام بالخمر وهيام بالطبيعة ، وكأنـــه وهو الذي كم عشق الموسيقى في حياته ، كان يحس معنى النغم في لفتـة الجسد وفورة الحب وجمال الوجود .

هذا هو علي طه وهذا هو مكان المرأة في حياته .. ترى هل كان يستطيع ان «يبغضها» بعد كل هذا الذي قلناه؟ سؤال .. وافتح الصفحة الثامنة والثمانين من ملحمة « الارواح والاشباح » لتستمع إلى « الشاعر » وهو يقدم اليك الجواب :

أأبغض حواء وهي التي ... عرفت الحنان لها والرضى ؟
وباع بها آدم خلده ... ولو لم يكن لتمنى القضا ؟
ورثت هواها فرمت الحياة ... وحبّ لي العالم المبغضا
اراها على الارض طيف النعيم ... وحلم الفراديس فيما مضى

★

وكانت حياتي محض اتباع ... فصارت طرائف من فنها
وكان شبابي صمت القفار ... ورجع الهواتف من جنها
فعادت ليالي الصبا والهوى ... ارق المقاطع في لحنها
وافرغت بؤسي في حضنها ... واترعت كأسي من دنها

★

قضى الله ان تغوي الخالدين ... وتغري بالمجد عشاقها
لقيت على بابها الفاتحين ... وغار الفتوح وابواقها
وكل مدل عصي القياد ... دعته الصبابة فاشتاقها
سلا مجده الضخم في قبلة ... تذل وتسعد من ذاقها

إن الجواب هنا يقول إن حواء قد حببت اليه الحيـــاة ؛ وحسبك أنها قد ملأت دنياه أنساً بعد وحشه، وأملا بعد يأس، ونوراً بعد ظلمة ، وإيماناً بعد شك ، وبسمة مشرقة تهز بصفائها آفاق النفس والفن بعد دمعة محرقة تلفح بوهجها شعاب القلب ومسارب العاطفة .

القاهرة — انور المعداوي